أشتات من فوضى الكلم. . . .

د. إبراهيم السامرائي

جهل المعربون والكتّاب حدّ الكلمة فلم يضعوها موضعها، وربما أخذوا بالجديد الوافد فذهبوا بها يمنة ويسرة. ولو أنهم سعوا إلى هذا الضرب من المعرفة لأدركوا "أن لكل مقام مقالاً". وأنت واقف في "الصحف" على "الغرائب" كل يوم، وكأنّ الكتابة في "الصحف" تقتضي الأقل من النَّصَبِ. إن لغة "الصحف" عربية خاصة ضاع فيها حد الخطأ والصواب، ولكن لهذه العربية خطراً خاصاً، ذلك أنها اكتسبت الشيوع والسيرورة، حتى أنك لتجد "خطبة" صلاة الجمعة قد نالها شيء من هذه العربية حمل الضيم عليها. وقد كان يفترض في هذه العربية أن تحتفظ بطابعٍ خاص، وأن تكون بمنأى عن الوافد الجديد، وأن يكون لها من لوازمها ثوابت تؤدي الغرض.

إن هذا لا يدخل في باب الخطأ والصواب، ولكنه يدخل في المسيرة التاريخية للكلمة فيسيء إليها. أترى أن لغة "الخطبة" في غنىً عن أن تشتمل على قول أحد الخطباء مثلاً في الحديث عن طائفة من أهل هذا العصر: "إنهم يذرّون الرماد في العيون"، و"إنهم يذرفون دموع التماسيح"، و"أن الأكثرية الساحقة منهم" لا تقيم حدود الله. إن هذه لنماذج من القول قد أبت أن تحس فيها قربى منها، ولو كان ذلك على طريق الولاء. إن هذا الأدب الجديد لا يدخل في باب الخطأ إن كان في مقالة سياسية أو اجتماعية، ولكنه جنوح بل نكسة أن يكون في أدب "خطبة" للجمعة.

ربما أُخِذَ نفر من المشايخ الجدد بفتنة المعاصرة، فلم يشعروا بهذه الغرائب التي وفدت إلينا فكانت من العربية المعاصرة. وما أريد أن أعرض لشيء يتصل بهؤلاء المشايخ الذين أقبل عليهم الجمهور يستمعون إلى كلماتهم الطيبات فيؤخذون

بما فيها من فصيح ودارج. وكأن هذا الخلط في الكلم ضرب من مواعظ العصر. أترى أن أحدهم، وهو ممن يستمع إليه خلق كثير يضيق به حرم المسجد، فينفسح سامعوه في المنفرج الفسيح من الأمكنة، قال: إن هذه "المعادلة الصعبة" تفضي إلى نتائج وخيمة، وقليل ما هم الذين يدركون "معادلته الصعبة". وذهب آخر إلى القول: ولم يبق لأحدهم إلا "الورقة الأخيرة" يلعبها ليدرك ما يريد.

أقول: تعالى الله عما نهرف بما لا نعرف علوّاً كبيراً.

ثم ماذا؟

إنه حشد كثير من أدب جديد لا يشعرك بالعافية، وأي عافية تنالها وأنت تقرأ في صحيفة الثورة ليوم الخميس (١٩٨٩/٥/٢٥) في الصفحة الأخيرة:

"إنتاج "معاني القرآن" الكريم تلفزيونياً".

أقول: إن "معاني القرآن" باب من أدب القرآن، صنف فيه اللغويون القدامى طائفة من تصانيفهم منها "معاني القرآن" للفرَّاء، و"معاني القرآن" للأخفش، وغير هذا. فهل لنا أن نستعير لـ "معاني القرآن" كلمة من مصطلح المسرح والسينما والتلفزيون، وهي "الإنتاج"؟ إن هذا لا يدخل في باب "الكبائر"، وليس هو كفراً، ولكنه خروج على أدب الذكر، وخروج على حرمة الكلمة التي تقتضي الكاتب أن يعرف لها مكانها الذي تسعَد فيه.

إذا كان لي أن أستعمل "الإنتاج"، وهو من مصطلح الفن في عصرنا، في الكلام على "معاني القرآن"، كان جائزاً أيضاً أن استعمل مصطلح "السناريو" في الموضوع نفسه!! اللهم إني أعوذ بك من سوء تشقى به نفوسنا.

وقرأت شيئاً يندرج في هذا الذي ذكرت في جريدة الثورة، وهو أن أحداً ممن يتعاورون على كتابة مقالات الصفحة الأخيرة قد ذكر في أول مقالته ما معناه:

كان الأمر في هذا كيت كيت، وتم ما أراد، و"لا هم يحزنون".

أقول: لقد ختم الكاتب كلامه بقوله: "ولا هم يحزنون"، وكأنه جهل أنها شيء من آيات عدة في جملة من السور هي البقرة وآل عمران والمائدة والأنعام. والأعراف ويونس والزمر والأحقاف. وإن عبارة "ولا هم يحزنون" في الآيات في تلك السور، شيء يقتضيه معنى الآية ونظامها. على حين أنها في عبارة الكاتب وكثير غيره تتمة لا يقتضيها المعنى ولا السياق، ولا النظام، إذ لم يكن في نظام "المقالة" نظام للفواصل على نحو النسق البليغ في أدب القرآن.

ثم إن الكاتب قد يكون جاهلاً أن قوله: "ولا هم يحزنون" من أجزاء آيات عدة في سور عدة. وهذا أعظم أيضاً.

ومن هذا الجديد الذي تساهل فيه الكتّاب فاقترفوا الإثم، قولهم مثلاً:

إن مقولة فلان "ما أنزل الله بها من سلطان".

أقول: إن قولهم: "ما أنزل الله بها من سلطان" بعض الآية الثالثة والعشرين من سورة النجم وهي قوله تعالى:

إن هي إلّا أسماءٌ سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾.

إن ما ورد في الآية في قوله تعالى "ما أنزل الله بها من سلطان" شيء يقتضيه الغرض من الآية، ذلك أن الذي جاء به المشركون هو أسماء سموها هم وأباؤهم، لم تأت في أدب القرآن، ولم تكن من دين الله.

فهل لنا أن نقتطع هذه التكملة من حيّزها فنستعملها في كلامنا في سياق بشري لا يتصل بأدب القرآن؟ إن هذا لتجاوز عظيم وابتعاد عن العلم.

وأذكر أني قرأت في إحدى الصحف الإفريقية العربية أن أحدهم استشهد فقال: كما في قوله تعالى: "وجلعنا لكل شيء سبباً"، وهذا قول الكاتب وقول آخرين في

الصحف، وليس قول الله تعالى. وهذا يدخل في باب العبث في الكلم الذي بدأنا به هذه الأشتات.

ومن هذا أيضاً قولهم في تساهل:

وقد انتهى الجدل والنزاع، والله يحب المحسنين".

أقول: وقولهم "والله يحب المحسنين" مأخوذ من بعض آيات وهو قوله تعالى: "إن الله يحب المحسنين": وهو شيء مفيد في سياق الآية كقوله تعالى مثلاً: "فاعف عنهم واصفح إن الله يحبّ المحسنين"، ومثل هذا في آيات أخرى. ولكننا نقتطع هذا فنلصقه في كلام يأباه، ولا تتم به فائدة خاصة.

وكأن هؤلاء المتساهلين لم يدركوا أن الكلم القرآني قد وضع في موضعه معنىً وسياقاً ونظاماً ومن هذا ما وجدته في مقالة في إحدى الصحف في الأردن قول أحدهم وهو يتكلم على أحوال الناس وغرائبهم فأكمل كلامه بقوله، وقال تعالى: ولله في خلقه شؤون.

وعبارته هذه ليست من القرآن، ولم ترد كلمة "شؤون" في مفردات القرآن، ولكن العبارة شاعت فحسبها من لا علم له بالقرآن، ولم يطل قراءته أنها من الكلم الشريف.

ومن هذا التساهل المخلّ استعمال الكثيرين، وهم يذكرون شيئاً فيختمونه بقولهم: "وما على الرسول إلّا البلاغ المبين".

أقول: إن كلامهم الذي ختموه بهذه العبارة ليس "البلاغ المبين"، وإن ليس لهم أن يستعيروا بعض آية يجردونه من سياقه فيستعملونه في كلام يصح فيه الصدق والكذب. وقد يستعيرون بعض "الحديث"، ولا يدركون أنه "حديث" كقولهم لمن يقوم بالقليل من العمل أو يقول كلمة في شيءٍ حقه كلام كثير: وهذا "أضعف الإيمان".

وليس هذا سياق "أضعف الإيمان"، ذلك أنه دفع المنكر مثلاً "بقلبه" وهو أضعف من أن تدفعه بيدك أو لسانك. واستعمالهم لـ "أضعف الإيمان" في غير ما وردت فيه من سياق تساهل في وضع الكلمة في غير موضعها.

ومثل هذا استعمالهم لكلمة "اللهم"، وهي عبارة دعاء، والمعنى كما قال النحاة والمفسرون: يا الله ووصلوا إلى هذا فقالوا إن "الميم" عوض من "يا" أداة النداء. وأهل النظر اللغوي التاريخي يرون أن "الميم" أضيفت في اللغات السامية ومنها العربية فأدت أغراضاً عدة منها "التمييم" الذي يقابل "التنوين"، ومنها الجمع، وهو يقابل النون، والكلمة دعاء.

ولكن المعاصرين حرفوها إلى غير الدعاء جهلاً منهم باستعمالها، فكانت لديهم كلمة زائدة في أسلوب الاستثناء، كقولهم: هذا ما أرفضه اللهم إلا في الضرورة، ويريدون: عند الاضطرار. إن كلمة "اللهم" في هذا الكلام الدارج زائدة، وليس لها في السياق موضع.

ولنتحول عن هذا الكلم الذي أسيء استعماله فذهب به إلى غير ما أريد منه، إلى نماذج جدّت في العربية فأخرجت مخرجاً لا نعرفه في المشهور المعروف من التركيب، ومن هذا قولهم: حبذا لو تحقق لك ما تريد.

لم يرد في العربية الفصيحة استعمال "حبذا" على هذا النحو مَثْلُوَّةً بـ "لو" التي تتصرف إلى ضرب من الطلب يقرب من الترجي. وقد استعملت "حبذا" استعمال ما يفيد المدح والذم، ولا "أُريد أن أدخل فيها دخول النحاة فأجعلها مركبة من "حَبَّ" و "ذا" فاعلها، ولكني أشير إلى استعمالها ليس غير. يلي "حبذا" اسم مرفوع أو في محل رفع، قال الشاعر:

لا حبّذا أنتِ يا صنعاء من بلد ولا شَعوب هوىً منّي ولا نُقُمُ

واتخذ النحويون من قول جرير شاهداً لهم:

يـا حبّـذا جبـلُ الريّـان مـن جبـلٍ وحبَّـذا سـاكِن الريّـان مـن كانـا
وحبَّـــذا نَفَحـــاتٌ مـــن يمانيـــةٍ تأتيـكَ مـن قِبَـل الريّـانِ أحيانـا

وعرف الدرج العامي هذه الكلمة وشاعت في كلام العامة.

وذهب بها المعاصرون في نهج من الاشتقاق والتوليد فصاغوا منها الفعل "حبَّذا" "يحبِّذ"، وطارحين للألف الأخيرة، بمعنى "استحسنَ" غير بعيد من معنى الأصل "حبَّذا".

ومن هذا استعمال المعاصرين لمادة "لا سيما" التي خرجت فيه عما وضعت له. ومن هذا ما أجده كثيراً من أنها وردت متلوّة بـ "إذا"، يقال: ينبغي الحرص على الشيء لا سيما إذا صار قليلاً. وهذا بعيد عما ورثنا من استعمال "لا سيما" في قول امرئ القيس، وهو من شواهد النحاة.

"ولا سيما يومٌ بدارة جُلجلِ"

إن تركيب "لا سيما" باب من أبواب النحو، رصد فيه النحاة بعد استقراء كلام العرب أسلوباً خاصاً باعتبار متلوّها إن كان معرفة أو نكرة.

غير أن اللغة المحكية في عصرنا وقبل عصرنا قد درج فيها المعربون إلى الاجتزاء بـ "سيما" وكأنهم وجدوا أن المعنى المراد حاصل فيها، وهو الدلالة على الخصوصية، وطرحوا "لا"، وهي أمّ الباب. إن باب "لا سيما" في النحو القديم يعطي منزلة لـ "لا" التي تتبع "إنّ" في العمل، مع إرادة الخصوصية في هذا النفي، ثم لحق بـ"لا سيما" شيء آخر يدخل في جوهر استعمالها كالذي عرضنا له.

ولنعرض لكلمة "أَبد" التي انصرفت من إفادة الدوام والبقاء إلى "الظرفية" من الأسماء. وقد صرفت في هذا الظرفية إلى الظرف الدائم. وقد يكون لي أن أذهب

إلى هذا، بل أبتدعه معتمداً على قوله تعالى: "خالدين فيها أبداً لهم أزواج مطهرة" (٥٧ سورة النساء). ومثل هذه الآية يتكرر في عدة آيات فقوله تعالى "خالدين فيها أبداً" أريد بها البقاء الخالد. على أننا نجد هذا الظرف يترشّح للمستقبل في آيات أخرى منها:

"ولن يتمنَّونَه أبداً بما قدَّمت أيديهم".

وكلمة "أبداً" بمعناها "إلى الأبد" وبالسياق الذي نستفيده من قوله تعالى: "ولن يَتَمنّونه" تنصرف إلى المستقبل.

على أن هذا السياق لن ينصرف إلى المستقبل دائماً، وذلك إذا قيد بشيء آخر يستفاد من السياق، ومعنى ذلك أن النفي بـ "لن" لا يفيد في دلالته على المستقبل على التأبيد كقوله تعالى:

﴿إنّا لن ندخلها ما داموا فيها﴾ ٢٤ سورة المائدة.

إن عدم الدخول مرتبط بدوامهم فيها، وهذا واضح في النفي بـ "لن" في قوله تعالى:

﴿لن تنالوا البِرَّ حتى تُنفقوا مما تحبّون﴾ ٩٢ سورة آل عمران.

قلت إن "أبداً" تنصرف إلى المستقبل ويأتي السياق مؤكداً هذا، وذلك في قوله تعالى:

﴿ ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً، ولا تقُم على قبره﴾ ٨٤ سورة التوبة.
﴿يرجموكُم أو يُعيدوكم في مِلّتهم، ولن تفلحوا إذاً أبداً﴾ ٢٠ سورة الكهف.
﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ ٤ سورة النور.
﴿يَعِظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ ١٧ سورة النور.

أقول: إن هذه الآيات ما اجتزئ به من آيات أخرى، خلصت فيها كلمة "أبداً" لهذه الظرفية المستقبلية "الخاصة" المرتبطة بمعنى أبداً، وهو الدوام والبقاء والأبدية.

لقد غُمَّ هذا الأمر على المعاصرين، وجهلوا هذه الدلالة فراحوا يستعملون في نفي الزمن الماضي، وكأنهم جهلوا حقيقية "لم" في النفي، فأنت تسمع وتقرأ من هذا قولهم: "لم أفعل هذا أبداً" وفي استعمالهم هذا لـ "أبداً" جهل لمعناها وخلوصها إلى "الأبدية".

ثم إن المعاصرين قد فهموا أن "أبداً" لا بد أن تكون في حشو النفي، وملازمة له، وهي ليست كما توهموا ذلك أنها تفيد الدوام والأبدية في الإثبات والنفي، وأنت تدرك هذا في قوله تعالى: "خالدين فيها أبداً".

وقد يسوقنا الكلام على "أبداً" وحضورها في سياق الجمل المنفية، وذهاب المعاصرين جهلاً إلى أنها ملازمة لهذا السياق، إلى كلمة أخرى هي "مطلقاً" أو "إطلاقاً". لقد صرفها المعاصرون جهلاً بحقيقتها ومعناها إلى حيّز النفي، فهم يقولون: لا أفعله، ولم أفعله ولن أفعله، ولم أفعله ولن أفعلَه مطلقاً أو إطلاقاً.

إن "المطلق" هو ضد "المقيّد"، و"الإطلاق" ضد "التقييد" اصطلاحاً، فقولنا مثلاً: إن "لا" تفيد النفي المطلق، ذلك أنها تنفي الماضي والحاضر والمستقبل، وإن "لن" تفيد النفي "المقيد"، وذلك أنها تنفي ما هو مستقبل ليس غير.

ومن هنا كان قولنا "مطلقاً" أو "إطلاقاً" مرتبط بمعناه، فقد يأتي في الإثبات كما يأتي في النفي. غير أن المعاصرين يجهلون هذه الخصوصيات فيذهبون في اللفظ ذهاباً قائماً على الجهل فيحدث التجاوز، ويشيع الخطأ.

وربما ساقنا هذا أيضاً إلى الكلام على "قَطُّ"، وهي ظرف زمان، مبني على الضم، لاستغراق الزمن الماضي المنفي كله نحو قول الفرزدق في مدح علي بن الحسين (زين العابدين):

ما قال "لا" قطُّ إلّا في تشهُّدِهِ لولا التشهُّدُ كانت لاؤه نَعَمُ

ولكن المعاصرين جهلوا خصوصية "قطّ" هذه، فقالوا: لا أفعل ذلك قط، ولن أفعله قطّ.. وهذا كله خطأ وتجاوز.

أقول: مهما جرينا في اللغة في سبيل التطور، وقبلنا الجديد، ووجدنا له باباً من القبول، فإننا محكومون بالقول بالخطأ والتجاوز، ذلك أن في اللغة ثوابت لا يمكن تجاوزها على ما نعرف من سعة العربية وسماحتها.

وقد يقودنا الكلام على "قطُّ" هذه إلى النظر في "قط" الساكنة الآخر، وهي بمعنى "حَسْب"، وقالوا أيضاً: إنها اسم فعل مضارع بمعنى "يكفي" فقالوا في مثلهم المصنوع: "قَطْ سعيدٍ أو سعيداً درهم بمعنى "يكفي".

أقول: لم يدرك المعاصرون الفَرْقَ بين "قطُّ" الظرف المضموم لاستغراق الزمن الماضي المنفي، وبين "قطّ" هذه الساكنة التي لا صلة لها بالنفي، فقد استعملوا الساكنة في حيز النفي كما استعملوها في الإثبات، مزيّنة بالفاء فقالوا في هذا: أخذت هذا فقط.

وأظلّ مع هذا الكلم القديم الذي ما زلنا نخوض فيه فلم نحتفظ بما كان له، ومن هذا قول المعاصرين: "لم أتسلم رسالتك بعدُ". إن المعنى يفهم بوضوح، وهو أن القائل لم يتسلم إلى زمن القول الرسالة. وهذا يدخل في باب النفي المحصور في مدة محدودة.

أقول: وهذا الذي أراده المعاصرون من المعنى يقتضي "لما" النافية الجازمة بمنزلة "لم" ولكن هذه أيضاً تقلب المضارع إلى الماضي وتنفيه إلى الحال أو زمن التكلم، قال تعالى:

﴿ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخلِ الإيمان في قلوبكم﴾ ١٤ سورة الحجرات.

وقال الشاعر:

فإنْ كنت مأكولاً فكن خيرُ آكلٍ وإلّا فـــأَدركْني ولمـــا أُمَـــزَّقِ

إنّ "لمّا" هذه أوشكت أن تزول في العربية المعاصرة، وإن المعربين، لجهلهم لخصوصيتها المفيدة، ذهبوا إلى توليدهم الخطأ، وهو استعمال "لم" يليها "بعد"، وهذا مولّد لا تعرفه العربية.

وقد يسوقنا الكلام على "لما" هذه النافية ذات الخصوصية في النفي، والجازمة، إلى الكلام على "لما" الظرف المفيد للشرط ولكنها لا تجزم، ولا بد أن يكون فعل الشرط معها ماضياً مثبتاً، وجواب الشرط يكون إما ماضياً مثبتاً أو ماضياً منفياً أو مضارعاً منفياً بـ "لم"، وهذه تحوله إلى الماضي، قال تعالى:

﴿لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخِزي﴾ ٩٨ سورة يونس.

﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يُغني عنهم من الله من شيء﴾ ٦٨ سورة يوسف.

ولك أن تقول: لما كنت قائماً بالقسط لم يذهب عنك حقّك".

وقد جاء الجواب أيضاً جملة اسمية مقترنة بـ "إذا" للفجاءة، قال تعالى:

﴿فلمّا نجيناهم إذا هم ينكُثون﴾ ٥٠ سورة الزخرف.

غير أن المعاصرين قد جهلوا هذه الحدود فتجاوزوها إلى الخطأ الذي لم تعرفه العربية، فقالوا مثلاً: "لما كنت حازماً تدرك ما تصبو له"، والجواب فيها مضارع. وربما أدخلوا الفاء على هذا المضارع في قولهم: "كنت حازماً فتدرك ما تصبو له".

أقول: والذي قدّمت من خصوصية جواب "لما"، وهو ما ورد في الكلام الفصيح في الآيات الكريمة وفي غيرها من كلام العرب هو الفصيح الجيد، وهو

حسن، أما استعمالُ المعاصرين فخطأ، وخطؤه يحمل الضيم على الجملة فيبدو خللها وضعفها.

ثم أتحول إلى "لن" النافية الناصبة التي تخلّص مدخولها إلى الاستقبال نحو قوله تعالى: ﴿لن نبرح عليه عاكفين﴾ ٩١ سورة طه، وهي لا تفيد التأبيد المطلق خلافاً للزمخشري الذي حملها على التأبيد المطلق، ولا أدري كيف جاز هذا له، وإن النفي فيها مقيد أحياناً بمستقبل قريب كقوله تعالى: ﴿فلن أكلِّم اليوم إنسياً﴾ ٢٦ سورة مريم، وكقوله تعالى: ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبّون﴾ ٩٢ سورة آل عمران.

غير أن المعاصرين جهلوا خصوصية "لن" في إفادتها نفي المستقبل وحدّ هذا المستقبل، واستعملوها لنفي المستقبل إرادة التأبيد فقالوا مثلاً: لم أفعل ذلك ولن أفعله.

ومن "الأشتات" التي عرض لها العبث في استعمال المعاصرين الظرف "إذ". قال النحاة: إنه ظرف لما مضى من الزمن، كقوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربُّه﴾ ١٢٤ سورة البقرة. وقد يلي هذا الظرف فعل مضارع معناه المضيّ كقوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل﴾ ١٢٧ سورة البقرة. وقالوا: ويخلص إلى المستقبل، وهو قليل نادر، كقوله تعالى: ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم﴾ ٧٠ غافر. وقد اجتهد في هذه الآية أهل العلم بلغة القرآن فذهبوا إلى أن "إذ" باقية في اختصاصها بالمضي، وأنها في هذه الآية داخلة على فعل ماض، والتقدير: إذ كانت الأغلال في أعناقهم...

أقول: وهذا كله قد غاب عن المعاصرين فأنت تجد من أقوالهم مثلاً: ويحصل إذ يكون الرجل قد حضر... وهذا كثير، كما يستعملون "إذ" في وجهها الصحيح، وكأنها تصلح في هذا وذاك.

خاتمة:

هذه "أشتات" رأيت أن أبسطها في هذا الموجز مشيراً إلى تجاوز المعاصرين في استعمالها، فقد توسعوا في الاستشهاد بالآي الكريم حتى أخرجوه عن حدّه فأساءوا، وربما حسبوا ما لم يكن قرآناً شيئاً منه.

وقد تجاوزوا أصول العربية في الاستعمال في طائفة من المواد، وليس لنا أن نحمل هذا التجاوز على التطور الذي شُغلنا به في عصرنا.